

## القصائد

بقلم : محيي الدين صبحي

\*\*\*\*\*

ليت شعري يا عبد الباسط ، وقد انهيت عمرك غريبا ، اية خمرة كانت في كرمك الخصيبة ! يا من قضيت نائيا وحيدا ، هل وجدت في افريقيا ما جعل الموت يحلو في عيونك ؟ كنت أمل الشعر في سوريا . نحن هنا فقراء . فقراء بعدما خسر الشعر ذراه ، فسمكت ابو ريشة ، وابتعد البدوي ، وانصرف نزار الى نظم الاناني ! بقيت انت تجتاز النرى ، وتحلق في كل قصيدة جديدة في جنات من الشعر جديدة . لم يكن الشعر عندك الا جهدا وغوصا في أغوار النفس وخلقنا للجمال .

هل تذكر ؟ ما كنا نسمر على كأس الا و « القصيدة السوداء »

هي نقلنا وفاكهتنا :

لا تفجل ، فالليل أندى وأبرد يا بياض الصباح ، والحسن أسود  
ليتي ليلتان في الحلك الرطب فجنح لى ، وجنح كان قد  
ست ، نحن الصيد في مجدك الأسود ، أهل البياض ، نشقى ونسعد  
وحوالي فريقك في مسحة الطرة شيء كأنه يتوقد  
كان أولى لو كنت آخذ بالخصر ولكن يكاد بالكف يعقد ...

وكانت أناة « أمين نخلة » وجودة تنقلاته وطراوة النغم فسبح شعره توجج خيالنا فشتعل وجدا بالحسن الأسود . ولا ابالغ اذا قلت ان هذه القصيدة لونت رؤانا عن افريقيا ، وكانت احمدى دوافع عبد الباسط الى السفر ، كما ان أمين نخلة ، بما يحوي شعره من جمال لفظي ، كان مثار تحدي لعبد الباسط ، اذ ان كبحار شعراء سوريا - اجمالا - كثيرو العناية باللفظة وصلفها والتأني باستعمالها في مواضعها .

وان كانت أسلوبية عبد الباسط تلتقي مع أمين نخلة بشقبة الالفاظ والاعتماد على اللفظة الشعرية ذات الظل والنغم والمساوي الشعري الطويل ، فانها تختلف عنها في ان شاعرنا شاب حديث مثقف يطل من نفسه على أزمة حياته والعالم - وهذا ما لا يخطر ببال أمين نخلة وأصحابه - ويظهر اختلاف الاسلوبين في كون أمين يعتبره غابة في حين ان الصوفي ينظر اليه ويستخدمه كأداة لرسم صور شفاقة توحى بالمعاني التي يفكر فيها ، والقيم التي يطرحها ، والأزمة التي يصدر عنها .

وقصيدة « مكادي » صورة لكل هذه العناصر التي ينسج منها الصوفي شعره . فشخصية الشاعر هي الانسان على صورة جواب خائب يأس لجا الى البحر لان الصخر والعقم أفرغا قلبه وروحه .. لكن رحلته فشلت ولم تحقق الهدف منها ، لقد تقرب وارتحل بحثا

عن جمال اسطوري ، يعيد اليه الف ليلة وحكايا شهرزاد ، فلم يحدث شبرا في البحر ولا في افريقيا ... يتخلل ذلك تصور للبحر وانوائه وزرقته وأبعاده ، وتصوير للجهد الضائع وخراب الروح والتدرد على الصخر والعقم ثم الانهيار . بعد ذلك يأتي وصف جمال مكادي وغوى فتنها .. والشاعر يستخدم لهذه الفسايات رموز سيزيف وشهرزاد ، ويقدم البحر كارض واسعة للصورة والحوادث ، ويفلح في خلق جو اسطوري سحري يحيل « مكادي » نفسها الى رمز للسعادة والحرية والجمال وكل الاشياء الثمينة التي لا تدرك . وعبد الباسط أنجح ما يكون حين يصور العنويات . انه يجسدها ويحيلها الى اشياء صلبة ، كما في قوله « يحمل افعال خبيته » فاضافة الثقل للخيبة من انجح التعبيرات عن الحالة النفسية للفاشل . والقصيدة ككل تورث دوار السفر وحسرة المتعب وتخطف حروفها الابصار باناقتها ولما ن أضوائها ، ومن حيث موضوعها فان العقم والصخر أفضل رمزين يحملان معنى حياتنا وبصوران ظروفنا ، أما الخيبة فانها تلف انساننا من قمة الرأس الى الاخمصين .. فضلا عن انها موضوع الانسان العاصر . وهي ايضا تمثل خاتمة المطاف في رحلة شاعرنا المتحدر . لقد رزنا به شاعرا مجيدا عميق الاتصال بماضيها الشعري ، وفجعنا به شابا مثقفا حر الفكر نقى الضمير .. كما انني خسرت صديقا لم يكن أقرب منه الى قلبي في هذا الوطن وبين اناسه المزيقين . انه شاعر كبير كان يجب ان يؤثر تأثيرا عميقا في كل الجيل الصاعد من الشعراء ، لو اتيح له ان يطبع ديوانا واحدا من انتاجه الكثير .. ولسوف اعلم على جمع نتاجه وارثب الفرصة لنشره .

★

من اعجب الامور ، انني وانا لا اهتم بالسياسة ، اطل على علم بدقائق ما يجري فيها ، عن طريق قصائد الاداب ، حيث اطلع على بيانات مفصلة لم تصدر عن جهة التحرير او المراجع السياسية - العسكرية المختصة ، بل يكلف البعض انفسهم خدمة الله والوطن العربي ويقدمون لنا أدق التفصيلات عن الحوادث ، ففي الجزائر اعتقل المستعمرون الفرنسيون فتاة مناضلة جزائرية اسمها « جميلة بوابشا » ، ويؤخذ من قصيدة الاستاذ سليمان العيسى ان هذه البنت كانت ( بسمة جديدة في شفة الخاود ) أما في قصيدة ( عرس اوراس ) لنجيب سرور فان المعلومات عن الوضع أوفر ، اذ نعلم اننا « أمس للقمه شيعنا صبية » وان بقية البنات « هن أقسمن سيلحقن بنا .. هن .. كل الاخوات ! » ثم تعرض علينا لوحات للندامة والتشويه والوحشية ، ثم تنتهي القصييدتان بتفاؤل مزهر ، كما يقتضي الادب النضالي منذ ان ابتدعه غوركي الى ان سن تقاليده الطيب الذكر .. جدانوف .

وقصيدة سليمان العيسى ، ككل انتاجه ، تحتوي على الكلمة

(( هيروشيما .. على صدر افريقيا )) انظروا معي الى هذه التراكيب اللغوية (( حط الصمت على الحصوات الهودج )) (( لكن ما فتلت في هذا اليوم التاسع جذرا )) ثم انتبهوا جيدا (( يا رب يكون حكيم مات يرود الكون المجهول )) (( من أقبل أمن الساق على غدائه )) . هذه نماذج قد اكون مبالغا في انتقائها .. لكنها من اسلوب جيلي عبد الرحمن . ترى هل هذا هو اسلوب الشعر ؟ ام اسلوب النثر ؟ هل تعرف العربية مثل هذا التركيب : يا رب يكون حكيم مات يرود الكون المجهول ؟ انا لم افهم منه معنى . انها كلمات اجتمعت بالصدفة . او كلمات لها معان قاموسية ولم تستطع ان تتفاعل لتؤدي لنا معنى اجماليا ينتج عن اجتماعها . ان الشعر لا يستسيغ الركاكة . ويظهر ان الشاعر لم يسمع بان في العربية أدوات ربط تصل الافعال والجمل بعضها ببعض ، فتصبح جملة اذا ترجمناها الى العربية (( يا رب قد يكون ثمة حكيم مات وهو يرود الكون )) اما اذا كان يعرف هذه الادوات ويحذفها من اجل اقامة الوزن فتلك مصيبة ادهى وأمر . لان ذلك يعني انه شاعر غير مطبوع . والشاعر المطبوع هو الذي تنقاد له القوافي والكلمات والاوزان بحسب المعاني التي تجول في نفسه ويجيش بها خاطره .

هل اتحدث عن بقية القصيدة ؟ ان اجزاءها مكسكة ، او بالاصح ملصقة الصاقا بدلا من ان تكون منبثقة انبثاق الفروع عن الجذع في الشجرة الواحدة . وليس أي صلة تصل بين المقاطع الثاني والثالث والرابع . اما الصور فانها عادية تعطي المعنى اكثر مما تعطي الانطباع :

افريقيا .. يا افريقيا ..

صدى صدرك أجش بالنجوى يا أمه

قد شوه انسان نسמת الصحراء

أغلق عينيه على نبض الاشياء

نبش الزمن العاري والايام الرقطاء

انه تصوير من الخارج تسوده الروح التقريرية . هذا شعر ينقصه الاندفاع الصادر عن ايمان وتجربة . ينقصه ان يكون شعرا يمثل موقفا من الوجود وطموحا الى عالم أسمى .. رغم ان الشاعر يشتهي ان يبصر موت النحاس . ويظهر ان النفس الفئائي الفردي يطاوعه ، فهو ألين روحا وألسن نظما حين يعبر عن الصوت المعين :  
في وهران العمر قصير  
طعم الزيتون مرير ..

فالقصيدا ليست على مستوى فني واحد ، فضلا عن ان الحشو يستهلك قسما كبيرا من حجمها ، مثل قوله (( لكن يا أمي الفضى .. أمه الساحرة التعبى )) فأحد هذين الشطين لا يكمل معنى الآخر ولا يتصل بما بعده من قول (( والغابات .. الشلالات )) ولو تفحصنا القصيدة لايعتينا معايب الاسلوب فضلا عن غيره .

(( عودة الى الرفاق المتعبين )) قصيدة في طريقها الى النضج .. عتاب على خيائنه ، دفاع سلبي : (( كلنا كان يخون )) ، تحليل النفس بالنسيان وبالرفاق المتعصبين الى درجة انه لم يعد في طاقتهم ان يحاكموا . مصدر الضعف فيها انها لم تبرأ من الذاتية . ان الموضوع يجب ان ينفصل عن ذاتية الفنان ، وبعبارة اخرى ، فان التجربة يجب ان تعالج بشكل موضوعي ليست فيه اية ظلال شخصية ، لان

- التثمة على الصفحة ٧٥ -

المستعملة ضمن حدودها المنوية ، بدون ظلال ولا ابعاء ولا صور .. ولا عجب في ذلك فالقصيدة مصنوعة لتلقى على الجماهير ، اذا بقيت ثمة مناسبة . ونشرها فيما اظن انما هو من باب الاعلان عن الديران ، ان سليمان لا يكتب لنا ، ومحامته على أسس الشعر تظلمه وتظلمنا معه . يجب ان يدرس سليمان من خلال المرحلة والحوادث . انه تاريخ الفترة ١٩٤٠ وما بعدها .. لكنه تاريخ منظوم . وهو رجل ضحى بغفه في سبيل اهدات شعبه ، في سبيل مواكبة هذه الاحداث . فلا يسعنا الا ان نحترمه كمناضل في سبيل قضيته ، واذا نظرنا الى القصيدة من كل هذه الاعتبارات - التي ارفضها - نجدها قصيدة وسطا جيدة السبك ، اما بمقياس المفاهيم الفنية الحديثة فانها لا تدخل في حيز الشعر . اما القصيدة التي تحاول ان تقدم نفسها بشكل حديث فهي ( عرس أوراس ) اذ انها تستخدم الاسطورة والرمز والصوت الجماعي ، فالاسطورة تتمثل في الطقس المصري القديم الذي يقدم فيه الفرعونيون عروسا للليل كل موسم لاعادة الخصب والحياة في مياحه وفي ارض الوادي ، وهذا الطقس يعادل طقوس السوربيين في موت ادونيس وبعثه . وهي الخطة التي يقتضيها الشعر الحديث منذ اليونان ، اذ ان الانسانية كل متكامل ، والماضي مستغرق في الحاضر والمستقبل والتعبير عن الانسان الحديث وعصره يقتضي الاعتماد على الفولكلور الشعبي والاساطير . هذا من حيث العرفان بالمنهج النظري .. اما التطبيق فشيء اخر ، يعتمد على موهبة الشاعر وحده وصدق تلقيه وانفعاله .. كما نذكر في قصائد السياب . على ان القصيدة عوضا عن ان تتحدث عن الطقوس لاثارة الجو الاسطوري تحدثت عن الامور المباشرة (( كم على صدرك يا أرض الجزائر .. )) وعوضا عن ان تتكلم عن روح الفداء والتضحية وتستبطن انفعالات العروس واستجابة النهر للضحية أعطتنا صور التشويه والتعذيب ساعية - كالفلام الايطالية - الى تملق عاطفة الشفقة والاحساس بالخوف ، وبذلك جاءت القصيدة لا هي من الشعر الحديث ولا من الشعر القديم !

ولا بد لي من الاشارة الى ان هذا الشعر الذي توحى به مناسبات عابرة ، ويستجيب له الكثير من الشعراء ، قد اصبح ظاهرة شائعة في ادبنا الحديث ، على انه كالرغوة التي تفور بسرعة وتطفئ بسرعة اكبر . لقد نظم ما ينوف على الالف قصيدة في جملة بو حيرد .. فماذا بقي ؟ ان سرعة الاستجابة تدل على ان الشاعر فقير بتصيد الموضوعات ، او انه شديد الايمان . وفي كل الاحوال ليست هذه التلبية المعجلة من مصالحة الفن .

(( حلم قديم )) لكامل ايوب تصف الانتظار الطويل لعانس من الطبقة الشديدة المحافظة ، التي تقنع بناتها من الدنيا بشباك ينتظرن خلاله اقدارهن . وكان من الممكن ان يمنح الشاعر لهذه القصيدة عمقا يرى من خلاله مأساة انتظار الحياة دون السعي الى بلوغها ، ويمكن ايضا ان تخرج القصيدة عن اطارها الفردي وتصبح عرضا لحياة جبل ، لكن روح التامل التي تسيطر على امرأة في الشباك ، هذه الروح مفقودة من القصيدة ولذلك جاءت فقيرة عادية ، حتى رموزها او تشابيهها واستعاراتها قريبة من متناول الكاتب والقارىء . ويمكن ان نقول عن امثال هذه التعبيرات (( رمان العود ، ورد الخد )) انها تعبيرات مبتذلة مهترئة لم تعد تصلح للذة او للاثارة . ومع ذلك لا يزال يوجد من يعتمد عليها .

## نقد القصائد

– التتمة من الصفحة ٨ –

الاثر الفني اذا ارتبط بشخصية الفنان غمض على القارئ وضعف اثره . ومن الجيد في هذه القصيدة بناؤها المتناسك ، فاجزاؤها تكاد تكون متوالدة عن بعضها ، ولا حاجة الى القول ان لغتها سليمة .  
« المهزومون » : نستشرف في قصيدة الطيب الشريف افقا فكريا واسعا ، وشاعرية خصبة مثقفة . انه يقذف عطش الروح كله منذ الجملة الاولى بجرأة وصدق ، كما انه يستطيع ان يصور الافراد التائهين ، يعطينا عذابهم وقلقهم وشوقهم :

ما ضر لو تفتق المجهول عن ملاذ  
يحضننا في دفته المجهول من قلوب الامهات  
بضمنا يومين في سبات  
فنحن وافدون من جزائر الارق  
أحداقنا كرات فحم تدلهم في الفسق  
وفي انسانها شؤبوب شوق يحترق  
وينضح الدموع والعرق ...

ذلك شعر فيه صدق ومكابدة . الصور مدروسة ومثبتة بعفوية في آن واحد مما يدل على انها تتطلق حسب منهج تعب الشاعر في تنظيمه والسير حسب خطته . وان كانت اللغة لا تسعفه فني القصيدة غلظتان « نريد نستقر » و « يا نوم يا نسيان لو تحضنا رؤوسنا » . ولست ادري فيما اذا أصبحت مهمة الناقد تصحيح الاخطاء اللغوية أم ما زالت تدور في حدود المناقشات الجمالية والفكرية ؟

« أطفال أفادير » لست أدري لماذا تذكرني قصيدة محمد البخاري بمطلع قصيدة للسياح « من قاع قبري اصبح .. » اما بقية القصيدة فعادية .

انني احاكم القصائد على اساس ان ما يمكن كتابته نثرا لا يجوز ان يكتب شعرا . وهذا لا يعني ان هناك افكارا شعرية ونثرية انما

يعني ان هناك تفكيرا شعريا . رؤيا شعرية تقدم العالم حسب موقف الشاعر من الوجود . كل قصيدة نافذة يجب ان تطل على الانسان والعالم من زاوية . وهذا يقتضي تكاملا في البناء من حيث الافكار والصور ، وتوترا خفيا – كما في قصيدة عبد الباسط – او توترا ظاهرا كما في قصيدة – الطيب الشريف – ثم لا يهم بعد ذلك استعمال الشاعر الاساطير او لجأ الى الصور او استخدم الفولكلور او لجأ الى التقرير . وسواء قدم الاديب احساسه شعرا حديثا او كلاسيكيا او نثريا . المهم ان ترتفع القصيدة الى مستوى الازمة ، الى مستوى الانسان . وهذه ليست دعوة للتجريد ، انما هي دعوة الى نبذ الجزئيات ، الى نبذ المحليات ، الى نبذ الحوادث الذاتية . ان الشعر اغناء للروح ، اطلاله على الابد ، تعميق للنفس وغور في اعماقها والا ما هذا الشعر الذي نقرأ ؟

استمعوا مقاطع من قصيدة احمد ابو عرقوب :  
يا ليتني وجدت كنزا ناصع البريق  
أحمله ملء يدي .. اهب الصفار  
دمي ، ثيابا ، فرحة ازهار  
يا ليتني رايت نور الله في الطريق ... الخ .

هذا المقطع انتقيته عن غير قصد . هل يرتفع عن مستوى الكلام العادي لانسان غير مثقف وغير موهوب ؟ ترى لو كتب نثرا هل يستحق صفحة من مجلة الاداب ؟ هل نذكر « الشعراء » بقول الخطيئة :  
« الشعر صعب وطويل سلمه »

انني احتار في تعليل الجرأة على النشر . لقد اصبح الشعر عصارة تراث الانسانية . ونحن ما نزال نملك كلاما بدون معنى في اغلب الاحيان ! ان الشعر طوفان يفرق القاريء وينهله ويتحدى ثقافة الناقد ووعيه . فابن نحن من كل هذا ؟ بماذا يفترق المقطع السابق عن اغنية فريد الاطرش « يا ريتني طير لاطير حواليك » ؟ هل هي علة الشعراء ؟ ام انها علة امة لم تنفض عنها تخاذلها ؟ ان المستوى الثقافي الذي تفصح عنه اغلب هذه القصائد مستوى قريب من الجهل ، قريب من الرباة والعد والنواح . ليس هذا هو وعينا الذي نطلب . اما أن نتمرد على السبات أو أننا نخسر كل شيء .  
محبي الدين صبحي دمشق

## رسالة الى مكادي

– التتمة من الصفحة ٢ –

★

الكناري الذي اجر صبحا ، راعش الخاجة ، محموم الجبين من روايي اسيا المستسلمات لدجى افريقيا الكابي الحزين حاملا قلبا عريض الامنيات وصبا حرف ولحنا ، وصلاة سوف لا تسمع من قيثاره العذب الرنين ما تعودت : رهيف الاغنيات سوف لا تسمع الا قمة سمراء تدور خلفه مر الانين

فالكناري الذي أحرق جنحيه الهجير والذي كنت رفيف الحلم في احداقه

ومثير الدفاء في اعماقه الكناري الذي هام يغنيك هوى اشواقه  
عله يلقاك ظلا ، مرفا بحميه من لفح السعير

طار لم ينبس بكلمه قبل ان يلثم عينيك مكادي

★

لم يقل حتى وداعا يا مكادي كان في الارض غريبا ومضى عنها غريبا

فابكه مثلي مكادي قل لغاباتك ان تبكي شبابه لخيول الريح ان ترتني اغترابه ان تحييه ، وتبكيه مكادي

★

فهو طير عربي من بلادي حمل الحرف غميسا بمحادات البوادي ومضى يغرسه في ارضك السمراء هربون وداد كله يزهر حبا ، وسلاما يا مكادي

★

كان فوق القمة السمراء قمه تتصي طائر الحب الحزين فمضى لهفان ، لم ينبس بكلمه خليل الخوري دمشق